الحج وأثره على الأوضاع الاقتصادية بمكة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري وحتى الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري"

أماني رمضان عبد الحميد

باحثة أكاديمية

ناقش البحث مقومات ازدهار التجارة بمكة، وأسواق مكة وتنوعها في موسم الحج وتطورها، كما ضائع المعروضة في الأسواق موسم الحج، وكذلك الحرف والصنائع في موسم الحج ومدى تطورها منذ نهاية العصر العثماني وحتى احتلال ضر، وانتهى البحث بمدى استفادة مكة من هذا الموسم العظيم في انتعاشها الاقتصادي، وأوصى البحث بعدنتائج من أهمها إنشاء مدينة صناعية بمكة، وإقامة أسواق عالمية تقوم موسم الحج.

لقد كرم الله ﷻ مكة بأن جعلها محضناً لبيته العتيق، ومهداً لرسالته الخالدة، تأوي إليها أفئدة الناس من كل فج عميق وفي ذلك استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم ﷺ قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}إبراهيم (آية٣٧)وقد جعل الله مكة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام. والذي يشهد الناس فيه منافع دينية ودنيوية، قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}الحج (آية٢٨)والمتأمل في موسم الحج يجد أن له آثاراً اقتصادية كبيرة، تعود بالنفع على الحجاج وأهالي مكة معاً، ومن هذا المنطق أحببت أن أشارك في الملتقى العلمي الثالث عشر لأبحاث الحج ببحث عنونته

الحج وأثره"على الأوضاع الاقتصادية بمكة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري وحتى الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري"

ويهدف البحث إلى التعريف بالمقومات الاقتصادية التي حبا الله بها مكة، وكذلك معرفة أسواق مكة من حيث نشأتها وتطورها، ومعرفة البضائع المعروضة في الأسواق، كذلك يهدف البحث إلى إبراز المهن والصنائع التي تسود في هذا الموسم.

ويناقش البحث الفترة التاريخية الممتدة من الربع الأول من القرن الرابع علشر الهجري وحتى الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري، حيث شهدت هذه الفترة نهاية الحكم العثماني على الحجاز عام ١٣٣٤هـ ، وتلاه حكم الأشراف إلى أن جاء عام ١٣٤٤هـ، حيث سجل التاريخ في هذا العام انضمام مكة للدولة السعودية الفتية ؛ لتشهد عصرها الذهبي في ظل قيادة الملك عبد العزيز آل سعود، وأبنائه البررة من بعده .

وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي والاستقرائي، والقائم على جمع المادة العلمية المتفرقة في المصادر والمراجع العلمية، ومن ثم العكوف على دراستها وتحليلها، لاستنباط فرائضها واستخلاص نتائجها، دون إفراط أو تفريط بما يخدم البحث.

وقد شملت خطة البحث على مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة، وفيما يلي بيان ذلك:

المبحث الأول: مقومات ازدهار التجارة بمكة.

المبحث الثاني: أسواق مكة.

المبحث الثالث: البضائع المعروضة في الأسواق في مكة.

المبحث الرابع: الحرف والصنائع في مكة.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

هذا وأسأل الله أن يوفقني فيما رمت إليه وهو حسبي ونعم الوكيل

د/ أمال رمضان عبد الحميد

المبحث الأول: مقومات ازدهار التجارة بمكة

. تميزت مكة عن سائر بقاع الأرض بمنحة ربانية وهبة إلاهية، ألا وهي أن يأتيها رزقها من الثمرات من كل مكان؛ استجابة لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام.

. رحلة الحج فريضة وعبادة قبل أن تكون تجارة، إلا أن الله سبحانه وتعالى أباح فيها التجارة، قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}( )، وقد كان هذا الإذن الإلهي دافعاً لرواج التجارة في أيام الحج، فمن الحجاج من يشتري البضائع المكية، ليبيعها في بلاده لندرتها هناك، وارتفاع أسعارها، ومنهم من يجلب معه بضاعته، ليبيعها في مكة، وبأسعار معقولة، تغطي تكاليف حجه وزيادة، ومنهم من يشتري الهدايا وما شاكلها، لتكون ذكرى من أطهر البقاع( ).

. موقع مكة الاستراتيجي، حيث تلتقي فيها طرق القوافل التي تنقل التجارة من الشمال إلى الجنوب والعكس، إضافة إلى قوافل الحجاج الذين يفدون إليها من كل فج، وترتبط هذه الطرق بميناء جدة الذي يربط تجارة الشرق بالغرب( )

. اهتمام الحكام بمكة من حيث كونها العاصمة الدينية للعالم الإسلامي، ففي العهد العثماني عمل الحكام على إرسال الصرة( )، والهدايا، وتوزيع الأموال على سكان مكة، والاهتمام بالمشاريع العمرانية بها، خاصة ما يتعلق بالمسجد الحرام( )، وفي العهد السعودي حظيت مكة برعاية خاصة من قبل الدولة منذ مؤسسها الملك عبد العزيز آل سعود مروراً بأبنائه، إذ شهدت حركة عمرانية واسعة النطاق، ونقلة حضارية كبيرة ولعل توسعة المسجد الحرام خير شاهد على ذلك، إضافة إلى المشاريع العملاقة في منطقة المشاعر.

. ومما ساعد على انتعاش الاوضاع الاقتصادية بمكة عناية الملك عبد العزيز آل سعود باستتباب الأمن والأمان في ربوع البلاد، مما أدى إلى الاستقرار السياسي، وانعكس ذلك على الازدهار الاقتصادي،

كذلك كان لاكتشاف البترول وتوظيف المملكة له في الطرق السلمية التي تحقق التنمية الشاملة في كافة مرافق الدولة، وتحقق متطلبات المواطن ورفاهيته؛ كان له الأثر الكبير في انتعاش الوضع الاقتصادي بمكة.

ـ وفي إطار اهتمامات المملكة بمكة وبأسواقها التجارية التي تتعامل مع كافة المسلمين من حجاج ومعتمرين وبمجتمعها المكي الذي يتميز بالتجارة وخدمة المسلمين القاصدين لبيت الله الحرام، أنشت غرفة مكة التجارية الصناعية عام ١٣٦٨هـ، لخلق قنوات اتصال مع منتسبيها وجميع الجهات ذات العلاقة بالعمل التجاري لملامسة متطلبات قطاعات الأعمال والعمل على تحقيقيها( ).

المبحث الثاني: أسواق مكة.

يعتبر موسم الحج من المواسم المميزة التي تنشط خلالها أسواق مكة ومنها:

سوق المدعى: ويبلغ عمره الزمني أكثر من ١٠٠٠ عام، ويقع في الناحية الشمالية من المسجد الحرام من جهة باب السلام ، وهو سوق تجاري طور في العهد العثماني وتم تسقيفه، وقد تمت إزالة السوق بالكامل وأدخل ضمن الساحات الشمالية للمسجد الحرام، وكانت تباع فيه الملابس والبخور والعطور، والسبح والسجاجيد.

السوق الصغير: ويقع في الناحية الغربية من المسجد الحرام، وتمت إزالته وإدخال مساحته ضمن الساحات الغربية للمسجد الحرام، وأقيم تحته نفق السوق الصغير، وأغلب ما كان يباع فيه المواد الغذائية والخبز واللحوم والخضار والتمور، والأسماك المقلية، كما كان به بعض محال الأواني المنزلية. ومحلات الأعلاف للأغنام والدواب.

سوق المسعى: وقد تم إزالته مع التوسعة السعودية للمسجد الحرام، وكانت تباع فيه الملابس كالشيلان الكشميرية والعقود المرجانية واللؤلؤ والسُبح وخواتم العقيق والبخور والعطور.

سوق الشامية: ويقع شمال المسجد الحرام، واشتهر ببيع الأقمشة الحريرية والحلبية والدمشقية والقطنية والكتانية، والسجاجيد. وقد تم إزالته مع توسعة المسجد الحرام.

سوق الليل: ويقع في شعب علي، واشتهر ببيع الأواني الفخارية والسبح والسجاجيد، إضافة إلى البقالون والعطارون وتجار الحبوب وباعة الأحذية ( ).

وفي العهد السعودي شهدت مكة نهضة عمرانية كبيرة، فتطورت أسواقها وتعددت وتنوعت. وأقيمت المراكز التجارية الكبرى ذات الأدوار المتعددة، والتي تعرف بـ"المول"، وتتميز بجمال عمارتها وروعة هندستها، كما أنها مكيفة، وتحوي حراسات أمنية، وسلالم ومصاعد كهربائية، ومواقف للسيارات، ومدينة لألعاب الأطفال، ومطاعم، ومحلات تجارية ذات ماركات عالمية، لبيع الملابس والأحذية، والعطورات والمجوهرات والذهب، والأدوات الكهربائية، والالكترونية، والمفروشات، ومن هذه الأسواق:

أسواق أبراج البيت، وتقع مباشرة أمام الحرم الشريف.

سوق الحجاز، ويقع على أول طريق مكة جده السريع.

سوق الضيافة، ويقع في حي النزهة علي امتداد طريق الحجون العتيبيه ثم النزهة.

سوق العزيزية المركزي، ويقع على شارع العزيزية الرئيسي.

سوق ذي المجاز، ويقع بشارع العزيزية العام بالقرب من سوق العزيزية المركزي.

سوق سيتي بلازا، ويقع بشارع العزيزيه العام بالقرب من ذي المجاز.

سوق العزيزية المركزي.

إضافة إلى العديد من الأسواق الشعبية كسوق شارع المنصور، وسوق العتيبية والتي تستهوي ببضائعها المتنوعة والمعتدلة في أسعارها نوعاً ما وفود حجاج بيت الله الحرام من مختلف الجنسيات( ).

أما عن تنظيمات الأسواق بمكة، فقد وجد المحتسبون الذين كانوا يتفقدون الأسواق، ويقومون بمحاسبة المخالفين لأنظمة السوق، ومكافحة الغش، ومراقبة المكاييل. واستمر مصطلح الحسبة والمحتسب إلى أن تغير في العصر السعودي، وأصبحت الهيئة التي تراقب أسواق مكة هي ما يعرف حالياً بـ "أمانة العاصمة المقدسة"، وقد اشتهرت أسواق مكة بالتنظيمات والقوانين للعناية بها، فيشترط في بناء الأسواق أن تكون منسقة ومنتظمة، وممراتها مسقوفة مظللة، ويظهر ذلك في سوق المسعى، وسوق سويقة. كما لا يسمح للتجار بإخراج بضائعهم خارج حدود محلاتهم، ومن خالف ذلك يعاقب، أيضاً تميزت الأسواق بتوفر عنصر الأمن وعدم السرقات ( ).

المبحث الثالث: البضائع المعروضة في الأسواق في مكة.

كانت البضائع قبل العهد السعودي تصل إلى مكة من الهند ومصر واليمن والشام وغيرها من بلدان العالم عن طريق البواخر التجارية، التي تحط بمراسيها في ميناء جدة،( ). وكانت أشهر البضائع المجلوبة: الحبوب كالقمح والشعير والذرة والأرز والفول، والفواكه والبن، الأقمشة، والبخور والعطور، والمواشي، حيث لا غني للحاج عن هذه البضائع( )، وفي العهد السعودي الزاخر تصل إلى مكة بضائع من مختلف بلدان العالم، وتشهد الأسواق بها استنفاراً من أجل توفير كافة البضائع والسلع التي يحرص الحجاج على شرائها، فبالنسبة للقطاع التجاري التمويني في مكة فهو يعمل على تأمين مختلف السلع والبضائع التموينية المناسبة لفترة الحج خاصة في قطاع المعلبات والأغذية المحفوظة لمواجهة زيادة الطلب على العصائر والألبان ومشتقاته ومنتجات الأجبان والمياه المعبأة والتمور قبيل وأثناء موسم الحج( ). كما تتوفر في الأسواق الكثير من البضائع التي يحرص الحجاج على شرائها وفي مقدمتها الهدايا كالمجسمات الكرستالية للحرمين الشريفين والصور الفوتوغرافية لهما وصور الكعبة المشرفة واللوحات التي تحمل كسوة الكعبة المشرفة، وبابها، والمشاعر المقدسة، إضافة إلى شراء المشغولات الذهبية والفضية، علاوة على السبح والسجاجيد والملابس والأقمشة والمفروشات والعطورات والأجهزة الكهربائية والجوالات( ).

وبحساب قيمة ما يضخه الحجاج في السوق المكية من ريالات فإنها تصل إلى أكثر من ٢ مليار تنفق معظمها في شراء الهدايا التذكارية ، إضافة إلى مليار ريالا لشراء الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، كالمكاوي والمكانس والخلاطات وأجهزة الهواتف المحمولة وكذلك النقالة الذكية( ).

وقد قدّرت الغرفة التجارية الصناعية في مكة حجم استفادة اقتصاديات مكة من موسم الحج بنحو ٧٠ % من الحجم الكلي للإيرادات في السنة، وأن هذه النسبة تمثل العمود الفقري لاقتصاديات القطاع التجاري والصناعي وأن موسم الحج – رغم قِصَر مدته مقارنة ببقية المواسم الأخرى كموسم العمرة – يمثل نحو ٧٠ في المائة من حجم الإيرادات للقطاعات التجارية في مكة( ). ويعزى قيام حجاج الدول الإسلامية والعربية إلى شراء السلع والبضائع المتنوعة أثناء موسم الحج من أسواق مكة إلى عدم توفر هذه السلع في بلدانهم، أو انخفاض أسعار السلع في مكة مقارناً بأسعارها في البلد الأصلي للحاج، كذلك هناك سبب أخر وهو ارتفاع جودة السلع التي تعرض في مكة مقارنة بجودة نفس السلع المنتجة محلياً في بلد الحاج( ).

وفي الوقت نفسه تشهد أسواق مكة خلال موسم الحج حركة نشاط تجاري معاكس حيث يقدم الحاج وبحوزته كميات من البضائع والمنتجات ليبيعها في أسواق مكة ومن أبرز هذه المنتجات السجاد، والمكسرات، والزعفران . والعسل . وزيت الزيتون وغير ذلك من منتجات والتي أغلب الأحيان تقدم من فلسطين والشام وتركيا وإيران وتركستان، وبلدان روسيا الإسلامية( ).

ويسجل الحجاج العرب والأفارقة أقوى المعدلات الشرائية في مكة، حيث تتركز مشترياتهم على الأقمشة والملابس والمفروشات كالبطانيات، إضافة إلى الذهب والهدايا التذكارية كالسبح والسجاجيد ومجسمات الكعبة والحرم ، ويليهم حجاج دول جنوب شرق آسيا والذين يفضلون شراء الأقمشة بكل أنواعها، في حين يفضل حجاج دول المغرب العربي الساعات والإكسسوارات فيما يقبل حجاج دول مجلس التعاون الخليجي على العطور بكل أنواعها، إضافة إلى المسابح والسجاجيد الفاخرة، والخواتم الثمينة. ويركز

الشيشانيون والإيرانيون والإندونيسيون على الفضيات، بينما يركز الأتراك على السبح والمجسمات الصغيرة التي تحتوي صورا للكعبة المشرفة( ).

المبحث الرابع: الحرف والصنائع في مكة.

يتميز موسم الحج بقدرته على توفير آلاف المهن والصنائع الموسمية أمام شريحة متنوعة من أهالي مكة، فقد وُجد في المجتمع المكي قديماً بعض أنواع الصناعات المرتبطة بتجارة الحج، ومعايش الناس وحركة البناء. فمن الصناعات التقليدية التي كانت قائمة بمكة ومازالت إلى الوقت الحاضر: إنتاج السلع التموينية والغذائية التي تقوم على الإنتاج الزراعي والحيواني، كعصر الزيوت وطحن الحبوب وتجفيف التمور( ). كما وجدت بمكة صناعة السُّبح والفخار والخصف والأحذية( ). ومن المهنيين أيضاً: السماكرة والخياطون والفرانة والخضرية والفكهانية وباعة الحبوب والحدادون والبناؤون والصاغة والدباغون( )، و"العطرجية"، وهناك من تخصص في بيع البهارات، والحناء والمساويك، أما طائفة الحلاقين، فكانوا يشغلون الدكاكين القريبة من المروة، وذلك ليسهل على الحاج التحلل من الإحرام بعد أداء نسكه( ). ولعل مهنة الطوافة تعتبر من أهم المهن في المجتمع المكي، فهي تشريف للمطوف الذي يقوم بخدمة ضيوف الرحمن، وتقديم المساعدة لهم، والسهر على راحتهم، وإرشادهم لأداء نسكهم على أحسن وجه، إضافة إلى ما تحققه من مردود مالي كبير من خلال تقديم خدمات الإسكان والنقل، وغير ذلك للحجاج، ولعل ما يحققه قطاع الإسكان في مكة موسم الحج من إيرادات كبيرة تصل إلى ما يناهز العشرة مليار ريال سعودي ما يؤكد على رواج الإيجارات في مكة في مواسم الحج والعمرة والزيارة ( ).

كذلك الزمازمة: وهم طائفة تقوم بسقيا الحجاج من ماء زمزم في المسجد الحرام، وتقوم بإيصاله إلى بيوت بعضهم ممن يرغب ذلك، وكانوا يستخدمون الأواني من الفخار معدة لذلك تسمى بـ : "دوارق"( )، وقد ظلت إلى عهد قريب هذه الدوارق بمكة حتى حل محلها مشروع السقيا الضخم الذي ملأ الحرمين، وفق الله كل من أسهم فيه وأجزل له المثوبة.

ومن الحرف الحديثة التي شهدتها مكة حرفة (كسوة الكعبة) ففي العهد السعودي أولت الحكومة اهتماماً ورعاية بكسوة الكعبة، فتم إنشاء دار خاصة لعمل كسوة الكعبة في مكة في مستهل شهر المحرم ١٣٤٦هـ، وتم إنتاج أول كسوة للكعبة المشرفة في أم القرى، وفي عام ١٣٩٧هـ تم افتتاح المبنى الجديد لمصنع كسوة الكعبة في (أم الجود) في مكة ، وقد زود بآلات حديثة لتحضير النسيج، واستحدث قسم النسيج الآلي مع الإبقاء على أسلوب الإنتاج اليدوي، لما له من قيمة فنية عالية. ولا يزال هذا المصنع يواكب عجلة التطور، ويحافظ أيضاً على التراث اليدوي العريق، لينتج كسوة الكعبة في أبهى صورها.

الخاتمة

نسأل الله حسنها

– لقد توصلت من خلال الدراسة إلى أن موسم الحج والعمرة والزيارة له تأثير مباشر وقوي على اقتصاد مكة، فكلما زاد أعداد الوافدين عليها خلال الموسم انتعشت الأسواق وراجت التجارة وعم النشاط والحركة في كافة مرافق المدينة.

–أن الكثير من أهالي مكة يعتمدون اعتماد كُلي في معاشهم على موسم الحج والعمرة، خاصة أولئك الذين يعملون في مهنة الطوافة، وتأجير المنازل، وتقديم خدمات الإعاشة والمسكن والمواصلات للحجاج والمعتمرين.

لذا نوصي ومن خلال هذه النتائج بما يلي:

– أن مكة بحاجة إلى مدينة صناعية جديدة بدلاً من الموقع الحالي الذي عُرف بضيق مساحته ووجوده داخل النطاق السكني، ولا يلبي طموحات الصناعة في مكة؛ ما ساعد على تناثر المصانع بها.

– تفعيل مشروع "صنع في مكة"؛ لتكون الصناعة المكية الهدية الأولى للحاج والمعتمر، عوضاً عما يتم في الوقت الحالي من بيع هدايا في معظمها يأتي مستورداً لزوَّار مكة.

– إنشاء المعارض التجارية في مكة، بالاستفادة من احتضان مكة موسم الحج والعمرة معارض دولية تنشط الحراك التجاري، وتحول أم القرى لورشة تجارية، وتحقق العائدات للبلاد.